4 - منزلة العلماء (4)

خطورة تنقص العلماء (ب)

1416/8/7هـ

إِنَّ الحَمْدَ للهِ، نَحمَدُهُ ونَستَعِينُهُ ونَستَغفِرُهُ...

عِبادَ اللهِ:

سَبَقَ الكَلامُ فِي جُمَعٍ مَاضِيَةٍ عَن مَسأَلَةِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ والطَّعنِ فِيهِم، وأنَّ هَذِهِ المَسأَلَةَ مِن أَعظَمِ المَسائِلِ خَطَراً عَلى الأُمَّةِ، فَفِي إسقاطِ هَيبَةِ العُلَماءِ فَسادٌ عَريضٌ عَلى المُجتَمَعِ، وَلَيسَ الفَسادُ الحاصِلُ مِن جَرَّاءِ ذلكَ فَساداً وَقتِيّاً، بَل يَكونُ مُستَديماً بِاستِدامَةِ تلكَ الظَّاهِرَةِ الشَّنِيعَةِ.

قَبلَ سِياقِ بَعضِ المَظاهِرِ التِي يَسعَى فِيها وخَلفَها مَن يُرِيدُ القَدحَ فِي العُلَماءِ، أَذْكُرُ لَكُم شَيْئاً مِن تَعظيمِ اليَهودِ لأَحبارِهِم، حَتَّى أَوصَلوا تَعظيمَهُم إِلى مَرتَبَةِ القُدسِيَّةِ.

فَهُناكَ طَوائِفُ مِنَ اليَهودِ يَنظُرُونَ إِلى زَعيمِهِم نَظرةً فِيها الكَثِيرُ مِنَ القُدسِيَّةِ وَالإِجلالِ، ويَعُدُّونَهُ مُرشِداً ومُعَلِّماً ومُوَجِّهاً، يُعطُونَهُ ثِقةً كَامِلَةً، ويُطِيعونَهُ إِطاعةً مُطلَقَةً، وَهُوَ الوَحِيدُ الذِي يَعتَرِفونَ لَهُ بِالذُّنوبِ، ويُحَدِّثونَهُ بِأَسرارِهِم، وعَمَّا تُكِنُّهُ نُفوسُهُم.

وقَد جاءَ فِي ضِمنِ بُنودِهِم المُسَلَّمِ بِها عِندَهُم:

(أَنَّ كُلَّ قَرارٍ سَيَتَّخِذُهُ أَمرُنا العَالِي سَيُقابَلُ بِالإِجلالِ والطَّاعَةِ دُونَ قَيدٍ أَو شَرطٍ)، إِلى غَيرِ ذَلكَ مِمَّا قَعَّدُوهُ وَأَصَّلُوهُ.

وَالمُصيبَةُ أَن يكونَ بعضُ المُسلِمينَ مِمَّن ضَرَبَ بِسَهْمٍ وَافِرٍ فِي الوَقيعةِ فِي العُلَماءِ والسُّخرِيَةِ وَالاستِهزاءِ بِهِم، وَهَضمِ قَدرِهِم ومَكانَتِهِم. ومَظاهِرُ الاستِهزاءِ والسُّخرِيةِ بِالعُلماءِ كَثيرةٌ، ولإيضاحِ ذلكَ يُقالُ:

- إِنَّ مِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ وَازدرائِهِم: مُحاكاتُهُم فِي أصواتِهِم وهَيئَتِهِمُ الخَلقِيَّةِ والخُلُقِيَّةِ، بِقَصدِ السُّخرِيَةِ والاستِهزاءِ بِهِم، وإِضحاكِ جُلَسائِهِ عَلَيهِم. وَهذا العَمَلُ الإِجرامِيُّ يَدُلُّ عَلى قِلَّةِ دِينِ صاحِبِهِ، وعَدَمِ مُبالاتِهِ بِالحُرُماتِ والحُقُوقِ.

أخرجَ الإمامُ أبو دَاودَ فِي «سُنَنِهِ» عَن عائشةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنها أَنَّها قَالت: حَكَيتُ للنَّبِي ﷺ إِنساناً فَقالَ ﷺ: « مَا أُحِبُّ أَنِّي حَكَيتُ إِنساناً وأَنَّ لِي كَذا وكَذا »[1]. وَالمُحاكاةُ هِي: تَقليدُ حَرَكاتِ الشَّخصِ، قَالَ ابنُ الأَثيرِ: (حَكَيتُ إِنساناً، أَي: فَعلتُ مِثلَ فِعلِهِ).

قَالَ الإمامُ النَّوَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي أَثناءِ كَلامِهِ عَنِ الغِيبةِ: (وَمِن ذَلكَ المُحاكاةُ، بِأَن يَمشِي مُتَعارِجاً أَو مُطَأطِئاً، أَو عَلى غَيرِ ذلكَ مِنَ الهَيئاتِ، مُريداً حِكايةَ هَيئةِ مَن يَتَنَقَّصُهُ بِذلكَ، فَكُلُّ ذلكَ حَرامٌ بِلاَ خِلافٍ) انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

فَإِذا كانتِ السُّخرِيَةُ بِأَحَدٍ مِنَ المُسلِمِينَ مُحَرَّمَةً، كَما قَالَ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ } [سورة الحجرات: 11]، فَكَيفَ بِالسُّخرِيةِ بِالعُلَماءِ أَو واحِدٍ مِنهُم؟! لاَ شَكَّ وَلاَ رَيبَ أَنَّ الذَّنبَ أَعظَمُ، وَالجُرمَ أَكبَرُ؛ لأَنَّ غِيبةَ غَيرِ العالِمِ مَقصورةٌ عَلى ذاتِهِ وَحدَه دُونَ غَيرِهِ، أَمَّا غِيبةُ العَالِمِ فَتَتَعدَّى إِلى سُمعَتِهِ وَفَتاواهُ وَطُلاّبِهِ وكُتُبِهِ، وَالأَخطَرُ مِن ذَلِكَ: إِلى العِلمِ الذِي يَحمِلُهُ، وَهُنا مَحَطُّ الرَّكبِ.

وَالشَّاهِدُ مِن هَذا:

أَنَّ ذلكَ المُستَهزِئَ بِمَقامِ العُلَماءِ يُخشَى عَلَيهِ مِنَ العُقوبةِ الدُّنيَوِيَّةِ قَبلَ الأُخرَوِيَّةِ، وَشَواهِدُ هَذا كَثيرةٌ، مِن ذلكَ مَا أَخرجَهُ الإِمامانِ ابنُ جَريرٍ وَابنُ أَبي حاتِمٍ عَن ابنِ عُمَرَ ومحمدِ بنِ كَعبٍ وَزَيدِ بنِ أَسلَمَ وَقَتادةَ، دَخَلَ حديثُ بعضِهِم فِي بَعضٍ: أَنَّ رَجُلاً قَالَ فِي غَزوَةِ تَبوكٍ: مَا رَأَينا مِثلَ قُرَّائِنا هَؤلاءِ أَرغَبَ بُطوناً وَلاَ أَكذَبَ أَلسُناً وَلاَ أَجبَنَ عِندَ اللِّقاءِ (يَعنِي رَسُولَ اللهِ ﷺ وَأَصحابَهُ القُرَّاءَ) فَقالَ: عَوفُ بنُ مالِكٍ: كَذَبتَ، وَلَكِنَّكَ مُنافِقٌ، لأُخبِرَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَذَهَبَ عَوفٌ إِلى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيُخبِرَهُ، فَوجَدَ القُرآنَ قَد سَبَقَهُ، فَجاءَ ذلكَ الرَّجُلُ إِلى رَسولِ اللهِ ﷺ وَقَدِ ارتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقالَ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّما كُنَّا نَخُوضُ ونَلعَبُ ونَتَحَدَّثُ حَديثَ الرَّكبِ نَقطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ، قالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنظُرُ إِليهِ مُتَعلِّقاً بِنِسعَةِ نَاقَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ وَإِنَّ الحِجارةَ لَتَنكُبُ رِجلَيهِ وَهُو يَقُولُ: إِنَّما كُنَّا نَخوضُ ونَلعَبُ، فَيقُولُ لَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: {أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ} مَا يَلتَفِتُ إِليهِ ومَا يَزيدُ عَلَيهِ.

قَالَ الإِمامُ أَبو بَكرِ بنِ العَرَبِيِّ: (لاَ يَخلُو أَن يَكُونَ ما قَالُوهُ مِن ذلكَ جِدّاً أَو هَزْلاً وهُوَ كَيفَما كانَ كُفرٌ، فإِنَّ الهَزلَ بِالكُفرِ كُفرٌ لاَ خِلافَ فِيه بينَ الأُمَّةِ، فَإِنَّ التَّحقيقَ أَخُو العِلمِ وَالحَقِّ، والهَزلَ أَخُو

([1]) رواه أبو داود (4874).

الباطِلِ والجَهلِ، قالَ عُلَماؤُنا: انظرْ إلى قَولِهِ: {أَتَتَّخِذُنَا هُزُواً قَالَ أَعُوذُ بِالله أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ } [سورة البقرة: 67]. انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

شَاهِدُ المَقالِ:

أَنَّ مَقامَ الاستِهزاءِ مَقامٌ خَطيرٌ، فَهُوَ مَزَلَّةُ أَقدامٍ إلى وَادٍ سَحِيقٍ، وَلِشَناعَةِ خَطَرِهِ وعَظيمِ جُرمِهِ ذَكَرَهُ اللهُ وَذَكَرَ أهلَهُ في غَيرِ آيَةٍ: {فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُمْ مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [سورة الأنعام: 10]، {فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنبَاءُ مَا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ } [سورة الأنعام: 5]، {يا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [سورة يس: 30]، {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ* الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللهِ إِلهاً آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [سورة الحجر: 95-96].

وقالَ تَعَالَى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعاً} [سورة النساء: 140].

فَفِي هَذِهِ الآيةِ جَعَلَ اللهُ الكُفرَ قَرينَ الاستِهزاءِ، وأَمَرَ بِمُفارَقَةِ مَجلِسٍ يُكْفَرُ فِيه بِآياتِ اللهِ وَيُستَهزَأُ بِهَا، وَحَذَّرَ مَن آثَرَ الجُلُوسَ فِي ذلكَ المَجلِسِ بأَنَّهُ مَحسوبٌ مِن أُولئكَ الصِّنْفِ الهَالِكِينَ، ثُمَّ بَيَّنَ مَصيرَهُم ومَآلَهُم.

وَمِنَ الشَّواهِدِ أَيضاً عَلى عَاقِبةِ المُستَهزِئينَ: مَا أخرجَهُ الإمامُ مُسلمٌ فِي صَحيحِهِ عَن سَلَمَةَ بنِ الأكوَعِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمالِهِ فَقالَ: «كُلْ بِيَمينِكَ» قالَ: لاَ أستَطِيعُ. فَقالَ ﷺ: «لاَ استَطَعْتَ، مَا مَنَعَهُ إِلاَّ الكِبْرُ» قالَ: فَمَا رَفَعَها إِلَى فِيهِ[1].

- وَمِنَ الشَّواهِدِ أَيضاً: مَا ذَكَرَهُ بعضُ المُفَسِّرينَ فِي آخِرِ تَفسيرِ سُورةِ المُلكِ: أَنَّ قارِئاً كانَ يَقرَأُ تِلكَ السُّورَةَ، فَلَمَّا بَلَغَ قَولَهُ تَعَالَى فِي آخِرِها: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَّعِينٍ} قَالَ صاحِبُ التَّفسيرِ: فَسَمِعَ الآيَةَ بعضُ المُتَجَبِّرِينَ فَقالَ: تَأتِي بِهِ الفُؤوسُ والمَعاوِلُ.

قَالَها استهزاءً وَسُخرِيَةً، فكانَ عاقِبَتُهُ: أَنْ أَذهَبَ اللهُ مَاءَ عَينِهِ وَعَمِيَ، نَعوذُ بِاللهِ مِنَ الجُرْأَةِ عَلى اللهِ وَعلى آياتِهِ.

قالَ الإمامُ الدَّارِمِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (بابُ تَعجيلِ عُقوبةِ مَن بَلَغَهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ حَديثٌ فَلَم يُعَظِّمْهُ وَلَم يُوَقِّرْهُ، ثُمَّ أخرجَ بسندِهِ إِلى أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه أَنَّهُ قالَ: قالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « بَينَما

---

[1] رواه مسلم (2021).

رَجُلٌ يَتَبختَرُ فِي بُردَتَينِ خَسَفَ اللهُ بِهِ الأرضَ، فَهو يَتَجلجَلُ فِيها إِلى يَومِ القِيامةِ»[1] فَقالَ لَهُ فَتىً -قَد سَمَّاهُ- وَهُو فِي حُلَّةٍ لَهُ: يَا أَبا هُرَيرَةَ أَهكَذا كانَ يَمشِي ذلكَ الفَتى الذي خُسِفَ بِهِ. ثُمَّ ضَرَبَ بِيَدِهِ، فَعَثَرَ عَثْرَةً كَادَ يَتَكَسَّرُ مِنها، فَقالَ أَبو هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنه: لِلمِنخَرَينِ والفَمِ {إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ} [الحجر: 95].

وَأَخرجَ الدَّارِمِيُّ أَيضاً عَن عَبدِالرَّحمنِ بنِ حَرمَلَةَ قالَ: (جاءَ رَجُلٌ إِلى سَعيدِ بنِ المُسَيَّبِ يُودِّعُهُ لِحَجٍّ أَو عُمرَةٍ فَقالَ لَهُ: لاَ تَبرَحْ حَتَّى تُصَلِّيَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: « لاَ يَخرُجُ بعدَ النِّدَاءِ مِنَ المَسجِدِ إِلاَّ مُنافِقٌ، إِلاَّ رَجُلٌ أَخرَجَتْهُ حاجةٌ وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجعَةَ إِلى المَسجِدِ ». فَقالَ: إِنَّ أَصحابِي بِالحَرَّةِ. فَخَرَجَ، فَلم يَزل سَعيدُ يُولَعُ بِذِكرِهِ حَتَّى أُخبِرَ أَنَّهُ وَقَعَ مِن راحِلَتِهِ فَانكَسَرَ فَخِذُهُ)[2].

وَمِن شَواهِدِ عُقوبةِ المُستَهزِئينَ أَيضاً: ما رَواهُ الخَطيبُ البغدادِيُّ فِي كِتابِهِ «الرِّحلَةُ فِي طَلَبِ الحَديثِ» قَالَ رَحِمَهُ اللهُ: (أَخبَرَنا أَبو الحُسَينِ عَلِيُّ بنُ مُحمَّدِ بنِ طَلحةَ الواعِظُ بِأَصبَهانَ قالَ: حَدَّثَنا سُلَيمانُ ابنُ أَحمدَ بنِ أَيوبَ الطَّبرانِيُّ قالَ: سَمِعتُ أَبا يَحيى زَكريا بنَ يَحيى السَّاجِي قالَ: كُنَّا نَمشِي فِي بعضِ أَزِقَّةِ البَصرَةِ إِلى بابِ بعضِ المُحَدِّثينَ فَأَسرَعنا المَشيَ، وكانَ مَعنا رَجلٌ ماجِنٌ مُتَّهَمٌ فِي دِينِهِ، فَقالَ: ارفَعُوا أَرجُلَكُم عَن أَجنِحَةِ المَلائِكَةِ لاَ تَكسرُوها -كَالمُستَهزِئِ- قالَ زَكَريا السَّاجِي: فَما زالَ مِن مَوضِعِهِ حَتّى جَفَّت رِجلاهُ وسَقَطَ).

وَبِكُلِّ حالٍ: فَلاَ يَحيقُ المَكرُ السَيِّئُ إِلاَّ بِأَهلِهِ.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وشَواهِدُ عُقوبةِ المُستَهزِئينَ كَثيرةٌ جِدّاً، ولَعَلَّ ما ذُكِرَ فِيه كِفايةٌ، وَأَسوقُ إِلى مَسامِعِكُم فَتْوى لِسَماحَةِ الشيخِ عَبدِالعَزيزِ بنِ بازٍ -رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى- تُبَيِّنُ خُطورةَ أَمرِ الاستِهزاءِ، قالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (الاستِهزاءُ بِالإِسلامِ أَو بِشيءٍ مِنهُ كُفرٌ أَكبرُ... وَمَن يَستَهزِئُ بِأَهلِ الدِّينِ وَالمُحافِظينَ عَلى الصَّلَواتِ مِن أَجلِ دِينِهِم ومُحافَظَتِهِم عَليه، يُعتَبَرُ مُستَهزِئاً بِالدِّينِ، فَلا تَجوزُ مُجالَسَتُهُ وَلا مُصاحَبَتُهُ، وهَكَذا مَن يَخوضُ فِي مَسائِلِ الدِّينِ بِالسُّخرِيةِ والاستِهزاءِ يُعتَبَرُ كافِراً) اهـ كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

مَعاشِرَ المُسلِمينَ:

وَبِما أَنَّ الكَلامَ عَن مَقامِ العُلَماءِ، فَسَأَذكُرُ صُوَراً تَتَعلَّقُ بِالسُّخرِيةِ والتَّنَقُّصِ مِنَ العُلَماءِ، يَقَعُ فِيها بعضُ النَّاسِ، ويَحسَبونَ أَمرَها هَيِّناً وهُو عِندَ اللهِ عَظيمٌ.

---

[1] رواه الدارمي (437). وأصله في «الصحيحين» (5789) (2088).

[2] رواه الدارمي (446).

- فَمِنْ مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ وَازدِرائِهِم:

عَدَمُ التَّوقِيرِ لَهُم عِندَ حُضُورِهِم، وَإِظهارُ التَّسَخُّطِ عِندَ سَماعِ بَعضِ أَشرِطَتِهِم، أَو ذِكرِ بَعضِ كُتُبِهِم واختياراتِهِم، بِزَعمِهِ أَنَّ ذلكَ العَالِمَ -أَو أُوْلَئِكَ العُلَماءَ- قَد اختاروا قَولاً يُخالِفُ مَا تَهوى نَفسُهُ أَو ما أَفتاهُ بِهِ شَيخُهُ أَو مُرِيدُهُ!

وَهَذا مِمَّا يَدعُو إِلى العَجَبِ وَالحَيرَةِ فِي أَمثالِ هَذا الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ، فَإِذا كانَ إِلى ساعَتِهِ لَم يَعرِف آدابَ المُتَعَلِّمِ مَعَ العالِمِ، ومَا الذِي يَنبغِي عِندَ اخْتِلافِ العُلَماءِ، وَأَنَّ المُصيبَ لَهُ أَجرانِ والمُخطِئُ لَهُ أَجرٌ واحدٌ، إِذا كانَ لَم يُحِط عِلماً بِهَذا، فَكَيفَ يَلبَسُ ثَوبَيْ زُورٍ ويُخَطِّئُ ويُصَوِّبُ دُونَ روايةٍ أَو دِرايةٍ؟ ورَحِمَ اللهُ مَن قالَ:

فَإِنْ كُنتَ لاَ تَدرِي فَتِلكَ مُصيبةٌ وَإِنْ كُنتَ تَدرِي فَالمُصيبَةُ أَعْظَمُ

وَصَدَقَ الآخَرُ إِذ يَقولُ:

وَمِن أَعْجَبِ الأَشياءِ أَنَّكَ لاَ تَدرِي وَأَنَّكَ لاَ تـدرِي بِأَنَّكَ لاَ تَدرِي

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلماءِ: أَن تُقارَنَ سِيَرُهُم بِسِيَرِ غَيرِهِم مِنَ النَّاسِ مِمَّن لَم يُعرَفُوا بِالعِلْمِ، فَضلاً عَنِ التَّضَلُّعِ فِيهِ، بَل وَالأَدهَى مِن ذَلكَ وَالأَمَرُّ: أَن يَكونَ ذلكَ القَرينُ المَزعومُ مِمَّن عُرِفَ بِخَلَلٍ فِي مُعتَقَدِهِ أَو خَطَـإٍ فِي مَنهَجِهِ، ومَع هَذا كُلِّهِ تُغفَلُ تِلكَ التَّبِعاتُ وَالمَزَلاَّتُ، ثُمَّ تُعقَدُ مُقارنةٌ بَينَ إِمامٍ عَلَمٍ وآخرَ لَم يَصِلْ إِلى مَرتَبَةِ طُلاَّبِ العِلمِ، فَضلاً عَن مَرتَبَةِ العُلَماءِ.

وَيَزدادُ الأَمرُ خُطورةً فِي هَذا البَابِ بِأَن يُظهَرَ ذَلِكَ المَزعومُ بِمَظهَرِ العالِمِ الفَقيهِ المُجاهِدِ، الخَبيرِ بِواقِعِ أُمَّتِهِ، وَفِي المُقابِلِ يُقَلَّلُ مِن صُورةِ ذلكَ العالِمِ الرَّبَّانِيِّ.

وَهذا التَّصَرُّفُ المَشينُ مِنَ الخِيانَةِ لِلأُمَّةِ، وَالتَّلبِيسِ عَلى شَبابِها، فَحَسبُنا اللهُ وَنِعْمَ الوَكيلُ، واللهُ المُستَعانُ عَلى ما يَصِفُونَ.

وَإِذا كَانَ الأَمرُ كَذلِكَ فَلْيَتَّقِ اللهَ أُناسٌ لَوَّثُوا أَقلامَهُم وَأَلسِنَتَهُم بِتِلكَ المُقارَنَةِ الجَائِرَةِ، وَلْيُعطُوا كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ ومُستَحَقَّهُ، وَإِن كانَ لا بُدَّ مِن مُقارَنةٍ فَلْيُنزِلُوا النَّاسَ مَنازِلَهُم.

أَقِلُّـــوا عَلَيهِم لاَ أَبــاً لأَبِيكُـــــــم

مِنَ اللَّومِ أَو سُدُّوا المَكانَ الذِي سَدُّوا

اللَّهُمَّ ارزُقنا تَوقِيرَ عُلمائِنا، واحفَظ فِي قُلوبِنا مَكانَتَهُم، إِنَّكَ سَميعٌ مُجيبُ الدُّعاءِ.

الخطبة الثانية

الحَمْدُ للهِ حَمداً كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيهِ...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

عَوْداً عَلى بَدءٍ يُقالُ أَيضاً:

وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

تَتَبُّعُ أَخطائِهِم وزَلاّتِهِم، ومِن ثَمَّ نَشرُها فِي كُلِّ مَجلِسٍ وعِندَ كُلِّ أحَدٍ.

فَيقومُ أُولئِكَ الصِّنفُ مِنَ النَّاسِ بِالاستِقراءِ وَالتَتَبُّعِ الدَّقيقِ لعالِمٍ مِنَ العُلَماءِ، فَيتواصُونَ عَلى قِراءَةِ كُتُبِهِ ورَسائِلِهِ، وما نُشِرَ أَو لَم يُنشَر مِن فَتاواهُ، إِضافةً إِلى سَماعِ أَشرِطَتِهِ، كُلُّ ذَلكَ بِقَصدِ تَصَيُّدِ الأَخطاءِ والمَزَلاَّتِ[1].

فَيقتُلونَ أَوقاتَهُم -بَل أعمارَهُم- فِي هَذا الشَّأنِ، ضارِبينَ عُرضَ الحائِطِ بِأَنَّهُم مُحاسَبونَ عَلى أَوقاتِهِم، ومؤاخَذونَ عَلى مَقاصِدِهِم.

وَلو كانَت جُهودُهُم تِلك مُسَخَّرَةً ومُرادةً لِتَحصيلِ الفائدةِ والعِلمِ مِن ذلكَ الاستِقراءِ والتَّتَبُّعِ لَوَرِثوا بِضاعَةً ثَمينةً، وكَنزاً عَظيماً، يَغبِطُهُم عَليه قومٌ ويَحسُدُهم عَليهِ آخَرونَ، وَلَكِن {أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً} [سورة فاطر: 8].

وقَد جَهِلَ أَو تَجاهَلَ أُولئكَ أَنَّ خَطأَ العالِمِ يُؤجَرُ عَلَيهِ، كَما ثَبتَ ذلكَ فِي السُّنَّةِ.

قالَ شيخُ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(وَمَن لَهُ فِي الأُمةِ لِسانُ صِدقٍ عامٍّ، بِحيثُ يُثنَى عَليه ويُحمَدُ فِي جَماهِيرِ أَجناسِ الأُمَّةِ، فَهَؤلاءِ هُم أَئمةُ الهُدَى، ومَصابِيحُ الدُّجَى، وَغَلطُهُم قَليلٌ بِالنِّسبَةِ إِلى صَوابِهِم، وعامَّتُهُ مِن مَوارِدِ الاجتهادِ التِي يُعذَرونَ فِيها، وهُم الذِينَ يَتَّبِعُونَ العِلمَ والعَدلَ، فَهُم بُعداءُ عَنِ الجَهلِ والظُّلمِ، وعَنِ اتِّباعِ الظَّنِّ وَمَا تَهوى الأنفُسُ)[2].

---

[1] عَلَّقَ فَضيلةُ الشيخِ صالحُ الفوزانِ هُنا بِقولِهِ: (لَيسَ هَذا على إِطلاقِهِ، فَإِذا كانَ بعضُ المُؤلِفينَ أَو الكُتَّابِ قَد اغتَرَّ بِهِ بعضُ النَّاسِ، أَو لَهُ أتباعٌ يَدعونَ إِلى اتِّباعِهِ، فَإِنَّهُ يُبيِّنُ ما عِندَهُ مِنَ الأَخطاءِ، لاَ مِن أَجلِ تَنَقُّصِهِ، وإِنَّما مِن أجلِ التحذيرِ مِمَّا هُو عَلَيهِ مِنَ الأَخطاءِ. وكَلامُ الشيخينِ -ابنِ تَيميةَ وابنِ القَيِّمِ- هُو فِي العُلَماءِ الكِبارِ الذينَ لَهُم فَضائلُ تُغَطِّي أَخطاءَهُم) انتهى تَعليقُهُ -أَثابَهُ اللهُ تَعَالَى.

[2] «مجموع الفتاوى» (43/11).

قالَ الإمامُ ابنُ القَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(ومَن لَهُ عِلمٌ بِالشَّرعِ والواقِعِ يَعلَمُ قَطعاً أَنَّ الرَّجُلَ الجَليلَ الذِي لَهُ فِي الإِسلامِ قَدَمٌ صالِحةٌ، وآثارٌ حَسَنَةٌ، وهُو مِنَ الإِسلامِ بِمكانٍ، قَد تكونُ مِنه الهَفوةُ والزَّلَّةُ هُو فِيها مَعذورٌ، بَل مَأجورٌ لاجتِهادِهِ، فَلا يَجوزُ أَن يُتَبَعَ فِيها، وَلا يَجوزُ أَن تُهدَرَ مَكانَتُهُ وإِمامَتُهُ فِي قُلوبِ المُسلِمينَ).

وَقالَ الإِمامُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

(وَلَو أَنَّا كُلَّما أَخطَأَ إِمامٌ فِي اجتِهادِهِ فِي آحادِ المَسائِلِ خَطَأً مَغفوراً لَهُ، قُمنَا عَلَيهِ وبَدَّعناهُ وهَجَرناهُ، لَما سَلِمَ مَعنا لاَ ابنُ نَصرٍ ولاَ ابنُ مَندَهْ، ولاَ مَن هُو أَكبَرُ مِنهُما، واللهُ هُو هادِي الخَلقِ إِلى الحَقِّ وهُو أَرحَمُ الرَّاحِمينَ، فَنعوذُ بِاللهِ مِنَ الهَوى والفَضاضَةِ) انتَهى كَلامُ الإِمامِ الذَّهَبِيِّ.

وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

تَلويثُ الأَلسِنَةِ بِغِيبَتِهِم أَو عَدَمُ الذَّبِّ عَن أَعراضِهِم عندَ غِيبَتِهِم، والمُصيبةُ الكُبرى أَن يُتَلذَّذَ ويُتَشهى بِالنَّيلِ مِن أَعراضِهِم قَولاً أو سَماعاً أَو إقراراً، وَهذا العَمَلُ يَدُلُّ عَلى خُبثِ طَوِيَّتِهِ وسُوءِ مَقصَدِهِ، وإِلاَّ فَكيفَ يَستَبيحُ لِنفسِهِ ذلكَ العَمَلَ المَشينَ.

فَغِيبةُ المُسلمِ مُحَرَّمَةٌ بِنَصِّ القُرآنِ الكَريمِ: {وَلاَ يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً} [سورة الحجرات: 12] وَذَلكَ؛ لأَنَّ لِلمُسلِمِ الأُمِّيِّ كَرامةً بِسببِ الإِسلامِ، فَكيفَ بِالعالِمِ الذِي تَسمُو مَنزِلَتُهُ عَلى غَيرِهِ بِمَراتِبَ؛ لِشَريفِ عِلمِهِ وعَظِيمِ نَفعِهِ؟

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

الفَرَحُ والاستِبشارُ بِمَرَضِهِم، وتَمنِّي مَوتِهِم، بَل والدُّعاءُ عَلَيهِم بِذلكَ، عِياذاً بِاللهِ؛ وذَلكَ نتيجةُ إِفرازاتٍ خَبيثةٍ تَلفِظُها عَليهِم النفوسُ الأَمَّارَةُ بالسُّوءِ، وَإِلاَّ فَالوازِعُ الدِّينِيُّ عِندَ المُسلِمِ يَتَأَثَّرُ إِذا رأَى المَرَضَ قَد نَزَلَ بِشَخصٍ غَريبٍ مَا دَامَ أَنَّهُ مُسلِمٌ، بَل ويَلهَجُ لِسانُهُ بِالدُّعاءِ لَهُ بِالشِّفاءِ والعافِيَةِ.

فَكيفَ يُقالُ فِي أولَئِكَ الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ؟ وَاللهِ إِنَّ اللِّسانَ لَيَعجَزُ عَن تَشخيصِ نَفسِياتِهِم وَأَحوالِهِم، وَإِلاَّ فَلو كانُوا مِن أهلِ الرُّشدِ؛ لَكانُوا أَبعَدَ النَّاسِ مِن ذلكَ الشُّعورِ الشَّيطانِيِّ؛ لأَنَّ مَوتَ العالِمِ مِن أَهلِ السُّنَّةِ مِن أَعظَمِ المَصائِبِ والمِحَنِ، ولَقَد عَلِمَ السَّلَفُ الصَّالِحُ عِظَمَ المُصيبَةِ بِموتِ صاحِبِ السُّنَّةِ:

أَخرَجَ اللَّالكَائِيُّ عَن أَيُّوبَ السَّختِيانِيِّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: (إِنِّي أُخبَرُ بِمَوتِ الرَّجُلِ مِن أَهلِ السُّنَّةِ، فَكَأَنِّي أَفقِدُ بَعضَ أَعضائِي).

وَأخرَجَهُ عَن حَمَّادِ بنِ زَيدٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: (كانَ أَيُّوبُ يَبلُغُهُ مَوتُ الفَتى مِن أصحابِ الحَديثِ فَيُرى ذَلِكَ فِيه).

فَإِذا كانَ هَذا شُعورُهُم عِندَ مَوتِ الفَتى والرَّجُلِ العادِيِّ مِن أَهلِ السُّنَّةِ، فَكَيفَ يكونُ شُعورُهُم عِندَ مَوتِ أَحَدِ عُلَماءِ السُّنَّةِ؟

لاَ تَعرِضَنَّ لِذِكرِنـــا مَعَ ذِكرِهِـم لَيسَ الصَّحِيحُ إِذا مَشـى كَالمُقعَـدِ

وَأَخرَجَ اللَّالَكائِيُّ عَن أَيُّوبَ أَيضاً أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ الذِينَ يَتَمنَّونَ مَوتَ أَهلِ السُّنَّةِ يُرِيدُونَ أَن يُطفِئوا نُورَ اللهِ بِأَفواهِهِم).

فَاللهَ نَسأَلُ أَن يُطَهِّرَ مُجتَمَعَنا مِن كُلِّ ما يُسيءُ إِلى عُلمائِنا، وَأَن يَحفَظَ لِعُلَمائِنا مَكانَتَهُم، وأَن يُعلِي دَرَجَتَهُم، وَأن يَكْبِتَ حاسِدَهُم وَشَانِئَهُم ومُبغِضَهُم.

وَلِلحَديثِ عَنِ العُلَماءِ بَقِيَّةٌ إِن شاءَ اللهُ تَعَالَى.

اللَّهُمَّ احفَظْ عُلَماءَ السُّنَّةِ فِي كُلِّ مَكانٍ وزَمانٍ.

اللَّهُمَّ وَفِّق وُلاةَ أُمورِ المُسلِمِينَ إِلى ما فِيه صَلاحُ الإِسلامِ والمُسلِمينَ.